بين أهـــله

« إذا رأيت رجلا موفقا فيما يحاوله ، مسدد الخطا إلى الهدف الذى يرمى إليه ؛ فاعلم أن وراءه امرأة يحبها وتحبه ! »

إننى لا أعرف — فيمن أعرف — أحدا تنطبق عليه هذه الحكمة انطباقها على حياة الرافعى ؛ فالواقع الذى يعرفه كل من خالط الرافعى وعرف طرفاً من حياته الخاصة ، أنه ما كان ليبلغ مبلغه الذى بلغ لولا الحياة الهادئة التى كان يحياها فى بيته ؛ فالى زوجه يعود فضل كبير فى نجاحه وتوفيقه وهدوء نفسه ، هذا الهدوء الذى هيأه لدراسة نفسه ودراسة من حوله والتفرغ لأدبه وفنه ، لا يشغله عنهما شاغل مما يشغل الناس من شئون الأهل والولد .

وقد تزوج الرافعى فى الرابعة والعشرين من عمره ؛ ولزواجه قصة فيها طرافة وفيها مجال للفكر والنظر ؛ وما دمت قد أخذت على نفسى أن أكتب عن الرافعى فى كل أطواره ، فلا على أن أقول ما أعرف من قصة زواج الرافعى ؛ ولا أحسبنى بذلك أتجاوز مالى من الحق أو أتعرض لعتب أو ملامة ، فقد خرج الرافعى من ملك نفسه وأهله إلى حكم التاريخ ، وللتاريخ حق واجب الوفاء

وزوج الرافعى مصرية صريحة النسب ، من أسرة البرقوقى المعروفة فى (منية جناج — دسوق) وأخوها الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى صاحب (البيان) ؛ وقد كانت صلة الأدب بين الرافعى وعبد الرحمن البرقوقى هى أول السبب فى هذا الزواج .

حدثنى المرحوم الرافعى قال : « ... كنت فى الرابعة والعشرين ، وكنت أعرف

عبد الرحمن البرقوقى نوعاً من المعرفة التى تربط بين شابين توافقا فى الطبع ، واتفقا فى الغاية ؛ وكان عبد الرحمن طالباً أزهرياً ولوعاً بالأدب ، له حظوة ومكان عند الأستاذ الامام إذ كان من تلاميذه الأدنين ؛ وكنا نلتقى أحياناً ؛ فسرنى منه ما سره منى ؛ وكان يعيش عيشة مترفة ليست منها حياة الأزهريين ؛ إذ كان له من غنى أبيه ومن جاه أسرته عز وكرامة ... فما تعارفنا حتى تصافينا ، ثم اتصل بيننا الود ، فكنت له وكان لى ، أصفى ما يكون الصديق للصديق ...

« لم أكن أعرف له أخا أو أختاً ، ولم يجر فى بالى قط أن الصلة بيننا ستتجاوز ما بيننا ، حتى كان يوم جلست فيه أتحدث إلى نفسى ، فكأنى سمعت صوتاً من الغيب يهتف بى أن صديقى عبد الرحمن هو صهرى وأخو زوجى ... وانتبهت وأنا أسأل نفسى : أله أخت ؟ ياليت . . . ! لو كان إننى إذاً من السعداء ...

« وكانت نفسى فى الزواج ، فما هى إلا أن تحرك فى نفسى هذا الخاطر حتى سعيت إلى صديقى عبد الرحمن ، وقلت له وقال لى ، وجرنا الكلام إلى حديث الزواج ، فقلت لصاحبى : من لى يا أخى بالزوجة التى أريد ؟ ووصفت له الفتاة التى تعيش فى أحلامى ؛ فلما فرغت من حديثى قال صاحبى : أنا لك بما تريد . قلت : أتعرف ؟ قال : هى هدية أقدمها إليك . قلت : من ؟ قال : أختى ! »

قال الرافعى : « وغشيتنى غشية من الفرح ، فما تلبثت حتى مددت إليه يدى فقرأنا (الفاتحة) ، وما وقع فى نفسى وقتئذ أننى أمد يدى لأخطب عروسى لنفسى ، ولكنى أمدها لأتعرف إلى العروس التى خطبتها على الملائكة وأثبتت نبأ الخطبة فى لوح الغيب »

وبنى بأهله ، وعاشا أهنأ ما يكون زوج وزوج ، ثلاثاً وثلاثين سنة — ثلث قرن — لم يدخل الشيطان بينهما مرة واحدة ، ولم يتخاصما لأمر ، إلا مرة .

قال الأستاذ جورج ابراهيم : لقد حضرت عرس الرافعى ، وصحبته طوال يومه

حتى صعد إلى جلوة العروس ، وشهدت اضطرابه وخجلته ، واستمعت إليه من بعد يتحدث عن سعادته ويغبط نفسه على حظه وتوفيقه ، فما شكا إلى مرة واحدة هماً ناله ، ومضى عام . . . وجاءنى ذات يوم ، فجلسنا نتحدث ، وتسرحنا فى الحديث ، ولكن وجه الرافعى كان ينم على سر يطويه ، ثم لم يلبث أن أفصح ، قال : يا جورج ، لقد عزمت على أمر . . . سأطلق زوجى ! وراعنى هذا النبأ ونال منى ؛ قلت : تطلقها ! لماذا ؟ قال : إن إخوتها يجحدون حقها فى تركة أبيها لا يريدون أن تستمتع منه بشىء ... قلت : فهذا هو السبب ؟ قال : نعم ، قلت : ويهون عندك أن تأخذها بما اقترف أخوها ؟ . . . مصطفى ، إنك جبار ، أو لا فاذكر أن الطلاق جريمة لم يقترفها قبلك أحد من أسرة الرافعى ؛ أو لا هذا ولا ذاك ، فاذكر أن أهل (طرابلس الشام) لا يذكرون الطلاق إلا كما يذكرون نادرة معيبة وقعت مرة ولن تتكرر من بعد ... فكن بعض أهلك يا صاحبى ... !

قال : وأطرق الرافعى هنيهة ثم قال : أحسبتنى أفعلها ... ! ؟

قال: ولم يدخل الشيطان من بعد بينه وبين أهله، إذ كان كل منهما يعرف لصاحبه حقه وواجبه . . ومضت اثنتان وثلاثون سنة بعد هذه الحادثة ، كما يمضى شهر العسل ، أو شهر الغزل ، ليس فيه إلا العطف والمحبة والاحترام .

* * *

كان الرافعى يعيش فى بيته عيشة مثالية عالية ؛ فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج ، وأب كما ينبغى أن يكون الأب ؛ وما كان منكوراً لأحد من أهله أن الرافعى ليس موظفاً كسائر الموظفين : عمله فى الخارج وحسب ؛ بل كانوا جميعاً يعلمون ما عليهم لهذا الرجل الكبير ، ويشعرون بما عليه من تبعات تفرضها عليه مكانته الأدبية ، فيهيئون له أسباب الهدوء والراحة والاطمئنان . كان فى بيته كالملك من الحكومة الدستورية : يملك ولا يحكم ، ويعيش فى جو من الاحترام والرعاية والطاعة ، فوق الأحزاب وفوق المنازعات ؛ فمن ذلك لم تكن (سياسة) البيت تشغله أى شغل أو تشغب على هدوئه وتعكر صفوه ؛ فكان خالصاً لنفسه ،

منقطعاً لفنه وعمله الأدبى ، فدار كتبه له هو وحده ، وطعامه مهيأ فى موعده وعلى نظامه ، وفراشه ممهد فى موضعه لساعته ، ونظامه الذى يحقق له الهدوء والراحة ونشاط الفكر مرعى مضبوط

على أنه كان إلى ذلك يعرف واجبه لزوجه وأولاده ، فما هو إلا أن يفرغ من عمله حتى تراه بين أهله مثلاً عالياً من الحب والوفاء . وأنا ما عرفت أبا لأولاده كما عرفت الرافعى ؛ إذ يتصاغر لهم ويناغيهم ويدللهم ويبادلهم حباً بحب ، ثم لايمنعه هذا الحب الغالى أن يكون لهم أباً فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والارشاد ، ناصحاً برفق حين يحسن الرفق ، مؤدباً بعنف حين لا يجدى إلا الشدة والعنفوان .

* * *

وما دمت بصدد الحديث عن الرافعى فى أهله ، فان واجباً على أن أتحدث هنا عن شىء من (حب الرافعى) أراه يتصل بهذا الموضوع :

فى فترة ما من حياة الرافعى — سيأتى الحديث عنها بتفصيل أوفى فيما بعد — كان للرافعى هوى وغرام ، ووقع له فى هواه ما يقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه ما دافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا هما على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه . وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدث الذى يعترض طريقى ويغلبنى على إرادتى ؟ إن فى بيتى امرأة أحبها وتحبنى — والحب عند الرافعى لا يأبى الشركة ! — وإن لها على حقاً ليس منه أن يكون منى لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لى ! ماذا يكون من أمرى وأمرها غداً أمام الله حين يطلب كل ذى حق حقه ؟ أأقول لها : نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبى الذى لا أملك لمن لا تملك ؟ ويلى ! إنها الخيانة والإثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثته ، وأفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه ، ثم قال : وأنت يا زوجتى ، هل يخفى عليك مكانك منى ؟ ولكن ...

واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة ... ثم أذنت له ... وكتب الرافعى رسالته الأولى إلى صاحبته التى غلبتــه على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد ...

وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجته كما قرأت رسالته ، وصار هذا دأبهما من بعد ... لا ترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه فى ذلك ملامة مادامت زوجته تعرف ... !

وأنشأ هذا الحب سلسلة من الطرائف فى الأدب العربى تم بها نقص العربية فى فلسفة الحب والجمال ، هى « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » و « أوراق الورد » ؛ ولـكن أحداً لم يقرأ القصة الأخرى . . . قصة هذا الوفاء وهذه التضحية ، لأن الرافعى لم ينشرها فيما ألف من الـكتب فى فلسفة الجمال والحب . . . !